المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء يمشي هادئاً يتخيّل في مشيته، يرجف بين الخطوة والخطوة كأنه من كبره يشعرك أن الأرض مدركة أنه يمشي فوقها .... ولا ينقل قدمه إذا خطا حتى ينهض برأسه يحركه إلى أعلى، فما تدري أهو يريد أن يطمئن إلى أن رأسه معه .... أم يخيّل اليه أن هذا الرأس العظيم قد وضع على جسمه في موضع راية الدولة، فهو يهزّه هزّ الراية ....

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طول غرفة وعرضها — فإذا هو زائغ البصر كأنما وقع في صحراء يقلّب عينه في جهاتها متحيّراً متردّداً، ثم كأنما رفع له في أقصاها جبل فأخذ إلى ناحيته ....

ورحبت به، وأجلسته إلى جانبي، فأخذ يستعرف إليّ بذكر اسمه وجماعته وبلده، لا يزيد على ذلك شيئاً كأنه عنترة بني عبس، لأرضه من طبيعتها جغرافيا، ومن اسمه جغرافيا على حدة. فلما رآني لا أثبته معرفة قال: إن بك نسياناً

قلت: وكثيراً ما أنسى، غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكر بتاريخ

قال: هذه غلطة الجرائد ... ومهما تنس من شيء فلا تنس أنك أستاذ «نابغة القرن العشرين (١)» ....

فسرّحت فيه نظري، فإذا أنا بمجنون ظريف أمرد أهيف، يكاد برخاوته وتفككه لا يكون رجلاً، ويكاد يبدو امرأة بجمال عينيه وفتورها

وتوسمت فإذا وجه ساكن منبسط الأسارير ممسوح المعاني، ينبئ بانقطاع صاحبه مما حوله، كأن دنياه ليست دنيا الناس، ولكنها دنيا رأسه

وتأملت فإذا طفولة متبلدة قد ثبتت في هذا الوجه لتخرج من بين الرجل والطفل مجنوناً لا هو طفل ولا رجل

وتفرّست فإذا آثار معركة بادية في هذه الصفحة تتلاها أفكار المسكين وعواطفه

وتبيّنت فإذا رجل مسترخ، متفتّر البدن، خائر النفس، كأنه قائم لتوّه من النوم فلا تزال في عينه سنة، وكأنه يتكلم من بقايا حلم كان يراه ...

وخيّل إليّ من هذا الخمول في هذا الشاب أن عليه جوّاً من تثاؤبه وأن المكان كله يتثاءب، فتثاءبت

* * *

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال: إن «نابغة القرن العشرين» رجل مغناطيسي عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم ... وحسبك فخراً أن تكون أستاذه وأخاه وثقته، «فليس على ظهرها اليوم أديب غيري وغيرك ...»

قلت في نفسي: إنّا لله، ما يعتقد الرجل أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري، وكأنما ألمّ بذلك فقال: لست مجنوناً؛ ولكني كنت في البيمارستان ...

قلت: أهو البيمارستان الذي يسمى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا. إن هذا الذي تسميه أنت هو مستشفى المجاذيب، أما الذي سميته أنا فهو مستشفى فقط ...

وذكرت عندئذ أن من المجانين قوماً ظرفاء يدخلهم الفساد في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح، فلا يكون جنونهم جنوناً إلا من هذا الوجه، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء، غير أنهم بذلك طياشون متقلبون، إذا ازدهى أحدهم لم يطقه الناس من زهوه وكبريائه وتعظمه، كأنه واحد الدنيا في هذه الفكرة وكأن بينه وبين الله أسراراً؛ ويظن عند نفسه أنه أعقل الناس في أرق طبقات عقله، وما جنونه إلا في هذه الطبقة وحدها

ومثل هذا لا بد له ممن يستجيب لهذيانه كيما يحرك فيه خفته وطيشه وزهوه وليكون عنده الشاهد على هذا الوجود الخيالي المبدع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل. فإذا هو ظفر بمن يجانسه، أو يصانعه، أو يجاريه حسبه مذعناً مؤمناً مصدقاً، فلا يدعه من بعدها ويتعلق به أشد التعلق، ويراه

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء وكان قد انتهى إلى المدرسة العليا الأولية ثم خولط في عقله فتركها؛ وكل ما جرى في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه

كأنه فى ملكه . . . فيتخذه صفيًّا وهو يعتقد أنه رقيق ؛ وقد يَزْعُمُه أستاذَه ليُفهِمَه من ذلك بحساب عقله . . . . أنه تلميذُه

وخشيتُ أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يُسمِّنى أستاذَه إلا بحسابٍ من هذا الحساب ، فهو سيُعطى الأستاذيةَ حقَّها ، ولكن كما هو حقُّها فى لغة جنونه . . . فأصبح فى رأيه تلميذه وصنيعتَه ، ومحدِّثَ هذيانه ، وثقتَه وملجأه ، والمحامىَ من ورائه ؛ قلت فى نفسى : إذا أنا تركتُه جالساً كان هذا المجلسُ مَثابَتَه من بعد فلا يعرف له محلاً غيره ويصبح كما يقال فى تعبير القانون « له المختار » ، فيَتَطَرَّأُ إلىَّ لسبب ولغير سبب ، ويقعُ فى أوقاتى وقوعَ السَّهو لا حسابَ عليه ويضيعُ فيه ما يضيع . فأجمعتُ أن أصرفَه راضياً بالبأس وقد انتهت نفسُه من معرفتى وانتهى عقله إلى الرأى أنى لا أصلح له أستاذاً ، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس

فقلت له : ظنى بك أنك أستاذ نفسك ، ولا يحسن بنابغة القرن العشرين أن يكون له فى القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغتَ للأدب ، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتى ، وقد جاء من العمل ما تراه وتكاد لا تفى به الساعاتُ الباقيةُ من الوقت و..

فقطع علىَّ وقال : إن الوقت ليس فى الساعة ؛ والدليل أنى أعطلها فيتعطل الوقت ولا يكون فيها يوم ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة

فقلت : ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمسُ التى تعيِّن منازلَ النهار ، فسيمرُّ الظهر ويحينُ العصر و ...

قال : ويأتى غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير فى الأدب وقرأتك ، فما كان لى رأى إلا رأيتُه لك ، ولا صحَّت عندى نظرية إلا رأيتك قد أبديتَها ، وأنا لا أعتقد أدباً فى مصر إلا ما توافَيْنا عليه معاً « ولا أسلِّم جدلاً ، ولا جدلاً أسلِّم أن فى مصر أدباء ينالون منى شيئاً ، فهو أنا وأنا هو »[1] ، ولئن لم يذعنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلَمُنَّ أنهم « وقعوا منى موقعَ نملةٍ على صخرة » . « هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجائر وليس معى ثمنها » . . .

فتهلَّلتُ واستبشرتُ ، وقلتُ له : هذا قرش فهلمَّ فاشتر به دخانك ، وفى رعاية الله . ثم استويت للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكَّن فى مجلسه . . .

* * *

وكرهتُ أن أتغير له وما أشك أنه فى هذا صحيحُ التمييز ؛ فما أسرعَ ما قال : إن « نابغة القرن العشرين » فتى قوىُّ الارادة ؛ فاذا هو لم يصبر عن التدخين ساعاتٍ فما هو بصبور . . . . وإذا لم يُثبِتْ لك هذا الأمرَ عن مُعَايَنَة .... فما أعطيتَه حقَّه

فقلت فى نفسى : لقد غرستُ الرجلَ من حيث أردتُ اقتلاعَه ، وأيقنت أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحياناً فتُلهمهم آياتٍ من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذى حكوا عنه أن ابراهيم الشيبانى مرَّ به وهو يأكل حبيصاً[1] فقال له : أطعمنى . قال : ليس هو لى ، إنما هو لمائكة بنت الخليفة بعثته إلىَّ لآكله لها ...

وقالوا : إنه مر بسوق البزَّازين فرأى قوماً مجتمعين على باب وكان قد نُقِب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم

فقالوا . هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشَونه فالْطِفُوا به لعله يخبركم . ثم قالوا : أخبرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سَنِىٍّ وحلواء ؛ فلما شبع قام فنظر فى النقب وقال : هذا عمل اللصوص . . . . .

وكانت مجلة (الرسالة) فى يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلامَ بها وقال : إنه يقرأ كل مقالاتى وإنه وإنه ، وإنها وإنها . قلت : فما استحسنتَ منها ؟ قال : (مقالة السيما) ...

فقلت : متى كان آخر عهدك برؤية السيما ؟ قال : أمس

قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما ، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس فتحول ما رأيته حلماً فى مقالة

فأعجبه هذا التأويل وقال : مثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) فاقرأ مقالتك فى الغيب من قبل أن تكتبها . . . .

(١) مابين القوسين هو كلامه بنصه كما لبهنا الى ذلك ، والباقى ترجناه نحن عن معانيه ، وأكثر ما يأتى فهذه سبيله

(١) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن

قلت : إنك تكثر أن تقول عن نفسك (نابغة القرن العشرين) وهذا يحصر نبوغك في قرن بعينه ؛ فلو قطعت الكلمة وقلت (نابغة القرن) لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر وما قبلهما وما بعدها

فرأيت به شَدْهَةً كأنه يفكر في جنونه ، ثم أفاق وقال : لا . لا . وإن هاهنا موضع نظر ، فلو رضيت بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول إني نابغة قرن خروف . . . .

* * *

فقلت في نفسي : حمأةٌ مُدَّتْ بماء(١) . وإن هذه الوساوس لاتنفك تعرو هذا المسكين ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار في ذهنه مجتمعة مختلطة مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لا نظام لها ، فلأسكت عنه ولأتشاغل بما بين يدي

وسكتُّ وأعرضت عنه بجمل طائفه بمتربه ، وكأن السكوت قد سلّط أفكاره عليه ، وكأنها أخذت تصيح به في رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالمجنون لا يزالون به حتى يُجَرِّدُوه ويفقدوه البقيةَ من صبره وعقله معاً . فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه(٢) وكَلَحَ وجهه حتى خفتُ أن يثور به الجنون ، فأقبلت عليه وتعلّلتُ بسؤاله ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال : إن له أخاً يعذبه ويُوقِعُ به ضرباً ويغلله بالسلاسل ويشدُّه « بأمراس كَتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَل » وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم

قلت : فأنت في حاجة إلى راحة ويحسن بك أن تأوي إلى مكان تتمدد فيه

قال : إني منصرف وسأجلس في ندىً كنا(٣) « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معي ثمن القهوة »

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمناً لها فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك الندىّ فالمكان هاهنا كثير الضجيج والحركة .

واستوفزتُ للقيام ؛ ولكنه لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسه

* * *

ثم قال : أراك الآن مُسْتَبْصِراً أني (نابغة القرن العشرين) بعينه

قلت : بل بعينيه اليمنى واليسرى معاً . . .

قال : لا . لا . إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد : عينهُ ونفسهُ وذاتهُ . « أي أنا نابغة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته ، فليس غيري نابغة القرن العشرين »

وكادت نفسي تخرج غيظا ولكني رأيت الحلم على مثل هذا يجري مجرى الصَّدقة ؛ وقلت إن أدباء المجانين كثيرا ما يتفق لهم الابداع الظريف إذا علّلوا شيئاً كذلك القاصّ الذي كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذي لم يأكل يوسف . . .

فقلت للمجنون : فما العلةُ عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد : عينه وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله ؟

فنظر نظرةً في الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاتهُ ودراهمهُ . (هذا من جهة ، ومن جهة ليس معي أجرة السيارة الى بلدي وهي قرشان)

قلت : هذه هي أجرة السيارة وَصَحِبتك السلامة ، ونهضتُ واقفا ؛ ولكنه لم يتحرك

* * *

ثم قال : إنك لم تعرف بعدُ « أني أقول الشعر في الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأني في الخطابة قُسُّ بن ساعدة أو أكثم بن صيفي ، وأني صخر لا ينفجر . . . يابس لاينعصر ، لست كالحجّاج بل كعمر . »

قلت : هذا شيءٌ يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين في الأدب والشعر والخطابة والترسُّل

---

(١) هذا مثل في معنى زاد الطين بلة ، والحمأة اذا مدها الماء زادت واتسعت

(٢) أي لمعت غضباً

(٣) نحن نستعمل الندى لمكان القهوة

قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكل معقول ومنقول . وقد انتهينا على ذلك

قال : ولكنك تحسبني مجنونا أو مغرورا « كما حسبتني الجرائد التي زعمت أن اختفائي في البيمارستان كان لجنوني الفكري أو لذكائي الطبيي وهو الأصح . . . فبيّن لهذه الجرائد أني خرجت وأني سأطبع الأدب بطابع جديد »

قلت : ولكني لست مراسل جرائد . قال « فاجعلني رسالة وراسلها عني أو أكتب لك أنا ما ترسله ، وما جئتك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقني بجريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفني كلها ، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية ؛ فضلا عن أني كاتب فذ ، وخطيب فذ ، وشاعر فذ . وهذا قليل من كثير ، فهل أعوّل عليك في صلتي بالجرائد أولا ؟ »

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك وقد بَلَوتهم وَبَلَوْا منك فلست في حاجة الى عندهم .

قال : « إنهم يخشون بأسي وقد حسبوني مجنونا استهوته الشياطين ؛ وماعلموا أن شيطان الشعر هو الذي استهواني كما أن شيطان الحب هو الذي استهواك ... هذا من جهة ، ومن جهة ليس مي ثمن الغداء ولا أكلفك شيئا ... »

قلت : فهذا قرش للغداء في مطعم الشعب . وهم الآن يتغدون ويوشك اذا أبطأتَ أن توافقهم وقد استنفدوا الطعام ، وأنت لاتجهل أن القرش في مطعم الشعب هو قرشان في القيمة

قال صدقت ؛ يوشك أن أوافقهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية . فلا بأس هذا للعشاء وسأطوي الى الليل ...

قلت : فمعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السيارة إلى بلدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل) [1] يغني بقيراط ولا يسكت إلا بدانق . هذا من جهة ، ومن جهة نخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرف

* * *

فشقّ ذلك عليه وقام مُغْضَباً ، وتنفستُ بعده الصعداء الطويلة .... وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقيّ وأخذت في رياضة التنفس العميق ؛ ثم زاغت عيني إلى الباب فاذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر . . . . . .

« لها بقية » (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث

الى . ا ج . بدمشق : سنكتب ان شاء الله مقال (الغنية) شهلا . ولكن دع المرأة وما اختارت . واعلم أن قولهم مغنية ، أو ممثلة ، أو راقصة كلة لها معنيان : أحدهما هذا الذي فيها ، والآخر أنها ... وأنها ... وأنها لا تصلح زوجة الرافعي

وحي القلم

مقالات الأستاذ الرافعي

مائة مقالة في جزأين

ألح القراء على الأستاذ « مصطفى صادق الرافعي » في جمع مقالاته ، فهيأ للطبع مائة مقالة تقع في جزأين كبيرين ، وقد فتح باب الاشتراك إلى آخر شهر ديسمبر من هذه السنة ، وجعل قيمة الاشتراك عشرين قرشاً صاغاً غير أجرة البريد ؛ وهي ثلاثة قروش لداخل القطر المصري ، وخمسة عشر قرشاً للأقطار الأخرى كي يرسل الكتاب مسجّلاً

وسيكون الثمن بعد الطبع أربعين قرشاً صاغاً ، ولا يطبع فوق عدد المشتركين إلا قليل ، وترسل قيمة الاشتراك باسم الأستاذ الرافعي في طنطا ، والمقيمون في القاهرة يشتركون من إدارة « مجلة الرسالة »

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد للخارج ١٥ قرشاً